الحروب الصليبية

دارت رحى حروب دامية في الشرق العربي منذ القرن السابع الميلادي على يد العرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية يحملون السيف بيد لمحاربة البيزنطيين، وباليد الأخرى القرآن الكريم لينشروا مبادئ الإسلام الحنيف. وكانت السيطرة والنصر المؤزر للعرب الأمجاد على الدولة البيزنطية في الشام ومصر. وواصل المسلمون زحفهم المقدَّس حتى وصلت تهديداتهم إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية بعد أن سيطروا على آسيا الصغرى، وبهذا هددوا البيزنطيين في عقر دارهم، بل وأجبروهم على دفع الجزية لهم.

أسباب الحروب الصليبية:

جرى الحقد مجرى الدم في عروق المسيحيين، ورأوا في العرب والإسلام قضاء على هيبتهم بل ووجودهم فتحينوا الفرص للانقضاض على المسلمين، وفشلت جميع محاولاتهم. حتى كان أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فتجمعت عدة عوامل عملت على إنجاح محاولتهم الصليبية في السيطرة على بعض أجزاء من العالم العربي. من هذه العوامل تفكك وحدة العرب بعد أن ضعفت الدولة العباسية وتمزّقت إلى دويلات صغيرة، وهو عامل هام كان له الاعتبار الأول في انتصار الحملات الصليبية، وهناك عامل آخر، وهو التعصب الممقوت عند المسيحيين ضد الدين الإسلامي السمح والذي جذب كثيراً من المسيحيين إليه، وهذا أثار العالم المسيحي على رأسه البابوات ـ رؤساء الكنيسة المسيحية ومقرّهم في روما بإيطاليا ـ الذي دعوا الناس في أوروبا لإشهار حرب ضد المسلمين لاستخلاص الأراضي المقدسة المسيحية من

أيديهم، ودعوة البابوات هذه هي التي أعطت لهذه الحروب صفة الدينية. ثم هناك عامل ثالث وهو سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا، وهذا شجّع الناس هناك على خوض الحروب أملاً في أن يجدوا بالشرق ملاذاً من سوء أحوالهم لما سمعوه عن غنى الشرق وثرواته.

السبب المباشر:

كان السبب المباشر لهذه الحروب هو استنجاد (الكسيوس) امبراطور الدولة البيزنطية بالبابا أوربان الثاني من السلاجقة المسلمين الذين استولوا على أملاك الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية. فعقد البابا مؤتمراً ضم أشراف أوروبا وكبار رجال الدين ودعاهم لمقاتلة المسلمين الذين هددوا الممتلكات البيزنطية المسيحية، واستغلال هذه الفرصة للاستيلاء على بيت المقدس ـ حيث الأراضي المسيحية المقدسة التي يحجون إليها – ووعد من يستشهد منهم بدخول الجنة، وعلّق على صدور الأمراء المتطوعين الصليب، مما جعل هذه الحرب تسمى بالحروب الصليبية.

الإمارات اللاتينية:

استمرت الحروب الصليبية بحملاتها المتعددة نحو الشام ومصر حوالي قرنين منذ 1097م. إلى 1291م. حيث توافدت جموع الصليبيين على القسطنطينية واستقبلها الإمبراطور الكسيوس استقبالاً حسناً، وتجمَّعت هناك عام 1097م. وقدّر بعض المؤرخين تعداد الحملة الصليبية الأولى بنحو 300 ألف مقاتل وآخرون قدّروها بنحو 150 ألف جندي. واتجهت الحملة إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى فاستردّت للدولة البيزنطية أملاكها هناك. واستطاعت أن تكوّن أربع إمارات صليبية ـ لاتينية ـ في كل من الرها (في أطراف العراق)

وفي أنطاكية (على الساحل في شمال سورية) وفي بيت المقدس (في فلسطين) وفي طرابلس (في لبنان). وقد لعبت السفن الإيطالية دوراً رئيساً في نجاح الصليبيين حيث كانت تمدهم بالمؤن والذخيرة.

ظهور العملاق العربي:

بدأت المقاومة العربية بصفة جدية بعد ظهور الأمير عماد الدين زنكي حاكم الموصل، والذي تمكن من السيطرة على أجزاء من سورية، ولّما أيقن من قدرته وقوة جيوشه هاجم إمارة الرها الصليبية وقضى عليها. فاستنجد الصليبيون بأوروبا، التي أرسلت حملة أخرى عام 1147م. التي حاصرت دمشق. إلا أن نور الدين بن عماد الدين زنكي هزمها وعادت الحملة إلى أوروبا تجر الهزيمة المنكرة، دخل نور الدين دمشق. وبذلك امتدّت أملاك نور الدين فأصبحت الإمارات الصليبية محاصرة بقوات نور الدين من الشمال والشرق.

ومات نور الدين ليظهر منجد الإسلام وحامي العروبة صلاح الدين الأيوبي، الذي قضى على الخلافة الفاطمية في مصر واستقل بها وضم الشام فعظمت قوّته. وهاجم الصليبيين بعنف وقسوة، فدحرهم في معركة حاسمة عام 1187م. عند حطين وكانت هزيمتهم ساحقة. وتابع صلاح الدين زحفه المقدس على الصليبيين فسقط في يده سقوط أوراق الخريف، وتوّج انتصاراته بالقضاء على أعظم الإمارات الصليبية وهي بيت المقدس. وأفزعت انتصارات صلاح الدين أوروبا كلها، فخرجت حملة صليبية جديدة تمكّنت من الاستيلاء على عكا بعد حصارها لمدة سنتين. وبقي صلاح الدين يجاهد حتى عقد صلح الرمله مع الصليبيين عام 1192م. الذي بمقتضاه انتزع المسلمون كل الأراضي التي كانت بيد الصليبيين، ولم تبق لهم سوى المدن الساحلية فقط فيما

بين صور ويافا، مع السماح للمسيحيين بزيارة بيت المقدس. ومات صلاح الدين في دمشق عام 1193م، بعد أن لقَّن الصليبيين درساً لن ينسوه وروى بدمائهم بطاح الشام العزيزة.

الصليبيون ومصر:

أراد الصليبيون تحطيم قوة مصر والقضاء عليها لأنها هي التي قادت حركة استرداد الأراضي العربية من أيديهم. وفشلت حملاتهم في تحقيق هذا الحلم البعيد المنال. وكانت آخر تلك الحملات حملة لويس التاسع ملك فرنسا عام 1249م. التي لحقتها هزيمة ساحقة عند المنصورة، ووقع لويس التاسع أسيراً في أيدي المصريين.

نهاية الصليبيين:

انقرضت الدولة الأيوبية من مصر، وقامت دولة المماليك وفي عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس استولت على حصن الكرك وقيصرية وأرسوف وصفد ويافا وأنطاكية وغيرها. ثم كانت آخر حلقة من حلقات الصراع الإسلامي ـ الصليبي على يد سلطان المماليك قلاوون الذي استولى على طرابلس ثم استولى ابنه خليل على عكا أقوى الحصون الصليبية آنذاك عام 1291م. وبسقوط عكا سلّمت بقية المدن الصليبية. وبذلك انسدل الستار على فصل هام من فصول الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، كان النصر فيه حليفنا.

وهذا في وقت كانت الدولة الإسلامية العربية في الأندلس مازالت في حرب صليبية ضروس أعلنتها أوروبا بقيادة ملوك قشتالة. وكانت الهزيمة التي لحقت قوات الصليبيين في المشرق عاملاً على زيادة الضغط الصليبي على دولة

المسلمين في الأندلس، فزاد الصراع وأحكم الصليبيون الحصار عليها حتى سقطت في أيديهم آخر مدينة إسلامية بالأندلس وهي غرناطة عام 1492م. أي بعد قرنين من هزيمتهم بالمشرق.

النتائج الهامة للحروب الصليبية:

1 ـ ضعف البيوت الإقطاعية في أوروبا بعد موت كثير من الأشراف مما أضعف النظام الإقطاعي، وظهور الطبقة الوسطى ـ التي قادت المجتمع الأوروبي وحلّت محل الأشراف ـ المشتغلة بالتجارة التي أمدّت حكّام أوروبا بالمال نظير الحصول على امتيازات خاصة.

2 ـ كانت الحروب الصليبية فرصة عظيمة لأوروبا للاستفادة من حضارة الشرق في النواحي الزراعية والصناعية وكذلك العلوم، فخرجت من ظلام الجهل الذي خيّم عليها في العصور الوسطى إلى نور النهضة في العصور الحديثة.

3 ـ جعلت العرب يحسّون بأهمية التكتل، فعملوا على تكوين جبهة إسلامية متحدة. كما عرفوا أهمية القلاع والحصون في الدفاع عن المدن.